قراءة في رواية
الشغف لعيسى قواسمي

بقلم: عواد أبو زينة

نشرت رواية الشغف في طبعتها الأولى في القدس عام ٢٠٠٩، في ١٩٤ صفحة من القطع المتوسط وفي سبعة عشر فصلاً، بدون الإشارة إلى ناشر أو دار نشر،. قدم لها الكاتب بإهداء الرواية إلى زوجته، وبشعر لمحمود درويش، وبتنويه حول شخصيات الرواية الواقعية والمتخيلة. وغالب على غلاف الرواية اللون الأسود كناية عن ظلمة الليل في جانب منه شمعة تذوب تتبثق منها شجرة أوراقها قطع فسيفيائية كما هي الحائط الذي خلفها، وكأنها إشارة إلى جدران كنيسة المهد التي يأخذ حصارها حيزا لا باس من الرواية يصل إلى قرابة ربعها.

كنت أعتقد أن رواية الشغف ستكون تكملة واستمرارا لرواية قواسمي الأولى (ظلال الهمس) لكن ظني ذلك كان خاطئاً، وإن كانت (الشغف) تطرح مسألة العلاقة بين الفلسطيني العربي المسلم وعلاقته من اليهودي الإسرائيلي من زاوية أخرى هي زاوية الأمومة والبنوة وليس من زاوية العلاقة الحبية، ولكن كلاهما تطرح فكرة الاحتلال والهوية

والانتماء والتعايش في الإطار الواسع. لقد عُرضت هذه العلاقة في عدة صور أو مستويات؛ فالمستوى الأول هو زواج أبي يوسف الفلسطيني من روتي اليهودية، وإنجابه ليوسف منها، واستمرارا لهذه العلاقة تنبثق علاقات أخرى محورها يوسف نفسه، كما سيأتي.

قضية هذه الرواية تتمحور حول نتائج زواج رجل فلسطيني عربي مسلم من يهودية إسرائيلية هي روتي، وينجبان ولداً هو يوسف. وكأني بالزوجين خضعا للحالة الواقعية للانفصال بين المجتمعين، إذ تنصاع روتي لطلب أهلها وتترك ولدها لدى أبيه طفلا لم يتجاوز السادسة، وتتزوج من يهودي إسرائيلي متعصب هو عزرا ويقيمان معا في مستوطنة جيلو قريبا من القدس. وفي ذلك إشارة إلى الاحتلال والاستيطان بما في ذلك من إنكار للحقوق الفلسطينية وإعلان انفصال بين حياتين ومجتمعين وثقافتين وموقفين.

ينشأ يوسف مع والدة العجوز في بيت لحم ويخلفه في إدارة مصنعه لصنع التحف الخشبية في بيت لحم، وهو جانب فني ترك أثره العاطفي في نفسية يوسف. ويوسف شاب عصامي ومثقف ومتزن ومنطقي ومسلم ملتزم ونشيط وشديد التمسك بهويته الفلسطينية، ولكن الشيء المفقود في حياته كان حنان الأم وعطفها.

وفي خط موازٍ تنشأ حنين شابة لأسرة ثرية (تقيم في بيت

حنينا الراقية وفي بيت بحارس وحديقة وسائق ومشاريع) ومثقفة وعملية ومنطقية وناجحة في حياتها الجامعية والعملية ومنخرطة بنشاط في حقوق الإنسان، لكنها كانت بعيدة عن تجربة الحب (الشغف) الذي تتحدث عنه بنات جيلها وصديقاتها في تجارب بدت غريبة عن حياة حنين، وكانت دائمة الفقدان لأمها، ففي حياتها شيئان ناقصان هما فقدان الأم وفقدان الحب، وهما يرتبطان ببعضهما ارتباطاً جدلياً.

تلتقي حنين بيوسف في بيت خلود في حفل استقبال نظمته هذه الأخيرة بعد عودتها من أحد أسفارها، وتقع في حبه دفعة واحدة فجأة وكذلك يوسف ويتعلقان ببعضهما تعلقا شديداً وباندفاع عاطفي عارم، ويتبادلان عبارات الإعجاب، ويتفقان على التواصل بعد أن عرفت حنين أو والدته يهودية وأنها تقيم في مستوطنة جيلو فتعده أن تستخرج له تصريحاً من السلطات الإسرائيلية يسمح له بزيارة القدس، ثم ترتب له لقاء مع والدته بعد اتصالها بها، وهكذا تنجح حنين في أعادة ربط العلاقة بين الابن ووالدته، ذلك اللقاء الذي يجر أحداثا تالية ويكشف عن خيوط متناقضة ومتشابكة.

تلتقي روتي بولدها وحنين في القدس، وتبدي عاطفة شديدة نحو ولدها قادتها إلى دعوته وحنين للذهاب معها إلى منزلها على الرغم من أنها تعرف رفض زوجها لتلك

الصلة، وهناك يلتقي يوسف بزوج والدته (عزرا) وولدها منه (ديفيد) ويدور حوار متشنج بين روتي وعزرا لأنه أراد طرد ذلك الفلسطيني الإرهابي من بيته، لكنها تطرد زوجها من البيت، ويعيد الكرة، ويبدي ديفيد عاطفة نحو أخيه، لكن يوسف يحسم الأمر ويترك البيت بإرادته مودعاً والدته بعد اتفاق بينهما على اللقاء في اليوم التالي.

في ذلك اليوم يتقدم يوسف لخطبة حنين من والدها ويبارك الوالد لهما. وفي اليوم التالي تقوم روتي ويوسف وحنين بزيارة أختها مريم في كيبوتس قرب يافا، وهناك يلتقي يوسف بخالته مريم، وبأخيه من أمه (ديفيد) وبسيما ابنة خالته مريم. أثارت سيما في تلك الزيارة قضايا شديدة الحساسية لدى يوسف وحنين إذ كانت حريصة على استعادة يوسف إلى البيئة اليهودية الإسرائيلية، لكن يوسف يتخلص من الأمر بدبلوماسية، ولكنه وحنين لا يخفيان انزعاجهما من تصرف سيما. الموقف ذاته يسير فيه ديفيد حين التقى بيوسف بعد يومين حين التقيا في القدس وعرض عليه ديفيد أن يقوم بالعمل على الحصول على الجنسية الإسرائيلية كونه ولدا ليهودية إسرائيلية، ولكن يوسف يرفض هذا الاقتراح بصرامة وقوة، ويبدي له تمسكه الشديد بهويته العربية الفلسطينية الإسلامية، وبحقه الكامل في وطنه، فكان يوسف يمثل التمسك بالحقوق والمبادئ في حين كان ديفيد يمثل فكر النفعية والمصلحية وواقعية

فرض الاحتلال (الأمر الواقع المنتصر)، ولذلك يفترقان وهما أشد ما يكون التناقض بينهما.
في المسار الآخر تنظم حنين وخطيبها أمور عقد قرانهما وزواجهما، ويعود يوسف إلى بيت لحم بعد انقضاء مدة تصريحه الذي كان يسمح له بالبقاء في القدس لمدة خمسة أيام. وفيما بين الخطبة وموعد الزواج تشتعل انتفاضة الأقصى ويلجأ يوسف إلى كنسية المهد مع من لجأ إليها من الرهبان ورجال الشرطة والمقاومين المسلحين من تنظيمات مختلفة، ومن المدنيين. كان الحصار قاسياً على أكثر من مستوى.

وجد يوسف نفسه محاصراً ومنخرطاً في المقاومة بدون إرادة منه وهو الوطني الذي ساهم من قبل في مقاومة الاحتلال بدون التزام بتنظيم ما. وجد يوسف نفسه في حصار كنيسة المهد الذي استمر نحو أربعين يوما، وهناك وجد صديقه القديم (منذر) المنتمي إلى كتائب شهداء الأقصى ويضمه هذا إلى قائمة المقاومين، وتصبح حنين محاصرة بحبها له، كلاهما محاصر مرتين: يوسف محاصر من جنود الاحتلال وبالانقطاع شبه الدائم لاتصالاته بحنين، وكانت هي محاصرة بحبها وعدم تمكنها من الوصول إلى بيت لحم، أو الاتصال بيوسف. حاولت أن تقنعه بمشروع أمه أن تخرجه من السجن كونه ابناً ليهودية إسرائيلية، ويرفض

يوسف المشروع رفضاً قاطعا بدافع ذاتي هو انتماؤه الفلسطيني ولخوفه من الاتهام بالخيانة. بعد حصار طويل تمرض حنين ويغمي عليها وتدخل المستشفى ولا تنفعها مؤانسة روتي وسهى لها، وينتهي حصار الكنيسة بصفقة بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية بعد مفاوضات مضنية وتدخلات دولية يُنفَى يوسف بموجبها مع مجموعة من المحاصَرين إلى غزة، ليدخل سلك الشرطة الفلسطينية بعد ملل طويل، وتفكر حنين بتجربتها، وتعيد النظر فيها، وتعتقد أنه يمكن أن تعيدها مرة أخرى إن كان قد كُتب على هذه القضاء.

ملاحظات فنية: الشخصيتان الأساسيتان (حنين ويوسف) فاقدان لحنان الأمومة وعطفها ويجدان في الحب تعويضا عن ذلك المفقود ولكن علاقتهما الإنسانية يقضي عليها الاحتلال بعد أن كانا على أعتاب الزواج. هاتان الشخصيتان خاصة تمران بظروف صعبة تصل بهما إلى حد اليأس، وبخاصة بعد إبعاد يوسف إلى غزة. الهمُّ الأساسي ليوسف هو هويته وانتماؤه ثم حبه، وهمُّ حنين حبها أولاً.

جرى تحول كبير في بناء الرواية في ربعها الأخير؛ إذ تحولت إلى وثيقة إخبارية صحفية مطولة ومباشرة عن حصار كنسية المهد عام ٢٠٠٢.

الزمن في الرواية زمن خطي يسير بالأحداث في تسلسل

تاريخي ونادراً ما وقعنا على مفارقات سردية زمنية، وإن كان القطع والقفز والاختصار حاضراً، ونادرا ما نجد الاستذكار.
تدور الأحداث الرئيسية في بيت لحم والقدس ومستوطنة جيلو وامتدت قليلا إلى كيبوتس قريب من يافا وفي النهاية تبدة غزة باهتة ومكانا للمنفى والإبعاد.

في الرواية مشاهد ممسرحة بعاطفية متوترة ولغة تلائم وَلَهَ شابين فقدا الحب زمناً ثم سقط عليهما فجأة، ومن ذلك اللقاء المشحون بالعاطفة الذي جمع يوسف بوالدته روتي في القدس.
الزمن شاغل مقلق للكاتب ولشخصيات الرواية ولذلك وثقت الأحداث بالتواريخ المحددة وبالساعات والفترات الزمنية المحددة المذكورة وبالأوقات (صباحا، مساء .. الخ) وبالمدة (يوم، أسبوع .. الخ.)
وبالإضافة إلى توثيق الكاتب للزمن ولحرصه على واقعية تسجيلية ذكر أسماء شهداء حصار الكنيسة والجرحى بتمامها كما ذكرت في الصحف ومواقع الإنترنت، وكان قد أشار إلى ذلك في تنويه سبق متن الرواية.
تناوب السرد والحوار في تقنيات بناء الرواية، وكان الحوار للمكاشفة والسرد والمناجاة للكشف.
الراوي شخصية غائبة تحرك مسارات الأحداث وتوجهها،

وهو راو عليم بضمير المفرد الغائب.
هناك مقاطع وظفت فيها المناجاة للكشف عن طبائع النفس وخصوصياتها، وتكررت تلك المناجاة على لسان حنين ويوسف.
حنين ويوسف يقعان في الحب بعد لقاء سريع في مشاهد تذكرنا بانفعالات أبطال المنفلوطي ولغته.
لعل الاسمين (يوسف وحنين) ذوا دلالة، فيوسف يذكرنا بجمال يوسف وحذقه، وحنين دائمة الحنين للحب الشغف.
الشخصيات في الرواية مواقف فكرية وممثلة، يوسف في جانب (الهوية الوطنية العربية الفلسطينية الإسلامية) وسيما وديفيد وروتي في جانب آخر، وهؤلاء يحاولون ضم يوسف إلى الجانب الإسرائيلي بطرق مختلفة، وإن كان عزرا يرفض وجوده أصلاً. ديفيد ويوسف نقيضان بل أصبحا عدوين في حصار الكنسية مما يطرح بقوة مسألة الجيل الناتج عن زواج مختلط (فلسطيني/مسلم – إسرائيلي/يهودي)
لقاء يوسف بديفيد وعزرا وروتي في بيتهم يذكرنا برواية عائد إلى حيفا.

عيسى قواسمي مشغول بالجوهر في هذه الرواية كما سابقتها، ولعل كلمة "الجوهر" من أكثر مفردات الرواية تواتراً.

للزمن أبعاد في الرواية: زمن واقعي ممثل بالتواريخ والأيام والأوقات كما ذكرها الكاتب صراحة، وزمن السرد الذي يسير ببطء حيناً وبتسارع أحياناً بحسب الظروف المحيطة، وبعض هذا الزمن مرتبط بالإحساس لدى الشخصيات، فيبطئ ويسرع شعوريا لا واقعيا. وبُعد آخر للزمن يكمُن في القفز عن بعض الأحداث التي قد تمتد من عدة ساعات إلى أيام وأسابيع.

دخول أدوات العصر (الهاتف) للتواصل لتشكل شخصية فعالة إلى جانب الشخصيات البشرية.

كتابة المذكرات والخلجات والانطباعات الشخصية كان لها حضور بارز في البناء.

جاءت الرواية في سبعة عشر فصلاً وليس بالضرورة أن يمثل هذا التنظيم انقطاعا في الزمن السردي.

لغة الكاتب مشرقة وجذابة ومثيرة، وخلت من الأخطاء اللغوية إلا في القيل النادر جداً، وقد يكون ذلك ناتج من الطباعة لا سيما وأن الرواية تمت مراجعتها لغويا قبل الطباعة.

*ناقد فلسطيني